العنونة وإحالاتها المرجعية في المعاجم العربية

مؤتمر اللغة العربية وآدابها 2006

جامعة الإسراء – الأردن

ملخص

د. عيسى برهومة– الجامعة الهاشمية

يحظى العنوان بأهمية كبرى في الدراسات السيميولوجية، إذ يعدُّ نظاماً سيميولوجياً ذا أبعاد دلالية شديدة التنوع والثراء، وأخرى رمزية، فهو عتبة النص للمتلقي، وأول لقاء مادي بين المرسل والمتلقي، وهو إشارة مختزلة ذات بعد إشاري سيميائي يحمله المتلقي باعتباره مفتاحاً يلج به أغوار النص قصد محاكاتها وتأويلها. وقد ظهر في الآونة الأخيرة العديد من الدراسات اللسانية والسيميائية تهدف إلى دراسة العنوان وتحليله من مستوياته التركيبية والدلالية والتداوليّة. ولئلا يبقى القول في دائرة التنظير المجرد_ مع أهمية التنظير في الدرس النقدي– نتناول دراسة لمجموعة من عناوين الكتب اللغوية على تنوعها. نلتمس فيها مدى تمثلها السيميائية القائمة على ارتباط الدال بالمدلول (العنوان بمحتوى الكتاب) وإحالاته المرجعية، و الوقوف عند تشكل الرؤى اللغوية لسيمياء العنوان عند القدماء بالتحديد.

سيمياء العنوان في المعاجم العربية

وهي تتناول عناوين المعاجم اللغويّة في إطار تنسيق الدلالة بفحواها. ولا سيما أننا أمام ركام من المواد اللغوية المختلفة، مبثوثة في ثنايا التواليف المعجمية. مما يحملنا على التماس عناوينها واستجلاء ما انطوت عليه من لمحات كاشفة.

- علَّل بعض أصحاب هذه المصنفات سبب إطلاقه هذا العنوان دون غيره، على نحو ما نجد في التقفية " هذا كتاب التقفية إملاء أبي بشر، وسمّاه بذلك لأنه مؤتلف على القوافي والقافية: البيت من الشعر" (البندنيجي: التقفية في اللغة، ص36).

فالبندنيجي شاعر يرتزق بصنعته، ولا بد له من توفير أدواتها، والقافية أهمها، ومعاناته لها كان السبب في صنع المعجم، وكي يوفّر له ولغيره من الشعراء مؤونة الصنعة في النظم والقافية. فأراد بصنيعه معجم التقفية أن يمدّ العون للشعراء، ويسهل عليهم انتقاء المفردات التي تلائم قوافي قصائدهم، فالعنونة عنده إشارة سيميائية ذات أبعاد دلالية موحية.

وكذلك صاحب الجمهرة، إذ قال: " وإنما أعرناه هذا الاسم، لأنَّا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشيّ المستنكر" ابن دريد: الجمهرة، ص40). وذلك أن الجمهرة من كل شيءٍ معظمه ومجمله، فوقع الاختيار على مجمل كلام العرب واستبعاد ما يراه منكراً على اللغة مستوفياً لرغائب اللغة، بعيداً عن المستهجن. والعنوان ذو بعد سيميائي دال.

أما صاحب تهذيب اللغة الزهري، فيقول: " وقد سميت كتابي هذا تهذيب اللغة؛ لأني قصدت بما جمعت فيه نفي ما أدخل من لغات العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها، وغيّرها الغُثْم عن سنتها، فهذَّبت ما جمعت في كتابي في التصحيف والخطأ بقدر علمي، ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم أعرف أصله، والغريب الذي لم يسنده الثقات إلى العرب". (الأزهري: تهذيب اللغة، ص54). والتهذيب في اللغة هو التنقيح وإزالة الخطأ، وبذا يكون تهذيب اللغة سيميائية دالة على مضمون معجم الأزهري كما علل ذلك.

كذلك تعليل ابن فارس للمجمل، بقوله: " وسميته مجمل اللغة، لأني أجملت الكلام فيه إجمالاً..."(ابن فارس: مجمل اللغة، 75/1). فيتخير لكتابه عنوانا يعد سمة دالة على ما فيه، إذ يشير إلى طريقة المؤلف في إجمال الكلام دون البسط.

وكذلك قول الفيروزابادي في تعليله لتسمية القاموس:" وأسميته القاموس المحيط، لأنه البحر الأعظم، لما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جدير بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر، إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادرة، أردت أن يظهر للناظر بادي بدء فضل كتابي هذا عليه، فكتبت بالحمرة المادة المهملة فيها" (الفيروز أبادي: القاموس المحيط، المقدمة).ولعل هذه التسمية تحمل دلالات ظاهرة ،إذ إن القاموس في اللغة هو البحر العظيم ،وهذا يحقق للعنوان سعة وتنوعا،ثم كان إتباع المؤلف" القاموس" بالمحيط تحقيقا للغاية من تصنيف المعجم كما أشار في مقدمة المعجم.

وفي محيط المحيط، قال البستاني: "هذا المؤلف يحتوي على ما في محيط الفيروزابادي، الذي هو أشهر قاموس للعربية، من مفردات اللغة وعلى زيادات كثيرة، فقد أضفت إلى أصول الأركان فيه فروعاً وتفاصيل شتّى، وألحقت بذلك اصطلاحات العلوم والفنون وكثيراً من المسائل، والقواعد والشوادر، وغير ذلك ممالا يتعلق بمتن اللغة، وذكرت كثيراً من كلام المولدين، وألفاظ العامة منبهاً في أماكنها، على أنها خارجة عن أصل اللغة، وذلك لكي يكون هذا الكتاب قيد الأوابد، ومحطّ الشوارد، فاستحق أن يُسمّى محيط المحيط" (البستاني: محيط المحيط، ص2). فلم يكتفِ بمحيط واحد بل أراد أن يكون أشمل وأوسع في دلالته على تفرع المادة اللغوية فأطلق عليه محيط المحيط.

أما المعاجم الأخرى التي لم يعلل أصحابها سبب تسميتها، فيبدو أنهم وجدوا عنوانها واضحاً دالاً على ماهيتها مما لا يحتاج إلى إيضاح وبيان، على نحو ما نجد في كتاب العين للخليل، ففي الوقت الذي يمكن أن نعتقد أنه أطلقه على كتابه على اعتبار أنه الحرف الحلقي الذي بدأ فيه كتابه، لأنه وجد الهمزة يلحقها النقص والتغيير والحذف، والألف لا تكون في ابتداء كلمة إلا زائدة أو مبدلة، كذلك الهاء فإنها مهموسة خفية لا صوت لها، فوجد بعد ذلك العين في الحيز الثاني من الحلق أنصع الحرفين فابتدأ به ليكون أحسن في التأليف. أيضاً يمكننا أن نعتقد أنه أطلق هذا الاسم على كتابه لما يتصف به هذا الحرف من التحقيق والجهر والشدة.

وهذا الحديث يمكننا إطلاقه على معجم الجيم، وهو من بواكير المعاجم في العربية. وقد ذهب الفيروزابادي إلى القول عندما قَيّد حرف الجيم في القاموس المحيط: " والجيم: الديباج، سمعته من بعض العلماء نقلاً عن أبي عمرو، مؤلف كتاب الجيم..."(الفيروز ابادي: القاموس المحيط، الجيم). فلربّما سمّاه بهذا الاسم على معناه، كذلك يمكننا القول إنه أطلق هذا الاسم عليه لما لهذا الحرف من خاصية الجهر والشدة وسط حروف العربية.

وهَدَف صاحب البارع فيما رامه إلى أن يبرع معجمه ويفوق ما تقدمه من معاجم، ولاسيما أنه أفاد من البحث اللغوي كثيراً، فقدم مادة لغوية ضخمة لم يصل إليها قبله من المعجميين.

أما المحيط في اللغة، فهو: "اسم أطلقه الصاحب بن عباد على معجمه، توسعاً وتمكناً في القدرة على الإحاطة بمفردات اللغة، وهذا شأن من ألف في صناعة المعاجم، لما لهذه الصناعة من وجوب توفّر الأسباب في إحكامها، ولهذا راحوا يطلقون على أسماء البحر، سعة وامتداداً، وبعداً في الغور، أو صفة من صفاته.." (عبد القادر عبد الجليل: المدارس المعجمية، ص170).

وتكرار اللفظة ذاتها عند ابن سيده في كتابه المحكم والمحيط الأعظم الذي جمع فيه شتات العربية وأمدّه بشواهد عدة من القرآن والحديث، وكان جلّ همه أن يمدَّ خطوط التواصل بين العربية والقرآن وكلام النبي عليه السلام مضيفا

إليها لفظ المحكم فكأنه ينسج أو يصنع صنعة يأمل إحكامها، والأغرب أننا نعلم أن المحيط هو العظيم من البحار، ومع هذا نجده يصف المحيط أيضاً بالأعظم، فربما أراد التوكيد من هذه التسمية ،ثم إنه أراد أن يشير في لفتة نبيهة إلى إحكام المنهج العلمي في مصنفه ثم اتساع المادة اللغوية التي جمعها وشمولها.

أما أساس البلاغة فإننا حين نقرأ العنوان تنصرف أذهاننا إلى معجم في قضايا البلاغة فيؤسس بها علم البلاغة العربية. ومع هذا نجد صاحبه يُعنى بقضايا الحقيقة والمجاز اللذين يحكمان بيان الدلالة فيه مع أنه معجم لغوي. وهنا ينزاح العنوان في دلالته.

ويطل علينا الجوهري في معجمه تاج اللغة وصحاح العربية، فيسم معجمه بأنه إكليل اللغة، وصحاح العربية، وربّما أراد أن يجاري بلفظه صحاح أصحاب الحديث على نحو ما نجد من صحيح مسلم وصحيح بخاري وكتب الصحاح الأخرى، فيكون بذلك حاملاً لدلالة الصحة في شكله ومضمونه. ولا شك في أن له أهمية لغوية لفتت انتباه الدارسين، إذا عملوا على دراسته وشرحه ووضع حواشي عليه واختصاره.

أما صاحب لسان العرب، فيصرح بتسمية لمعجمه بهذا الاسم، إذ أملى عليه الدافع من تأليفه هذه التسمية، فيقول: " فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية، وضبط فضلها، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبويّة، ولأن العالم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النية واللسان، ويخالف فيه اللسان النية، وذلك لما رأيته قد غلب، في هذا الأوان، من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يُعدُّ لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه فيه يسخرون، وسمّيته لسان العرب" (ابن منظور: لسان العرب، 8/1). وبذا يكون لسان العرب جاء في وقت كانت الأمه العربية في أمس الحاجة إليه، لحفظ لغة أسلافها والحفاظ عليها، فكأن ابن منظور أراد أن يحفظ هذا الموروث اللغوي من الضياع، ليظل موسوعة العرب المعجمية التي تميزت بالدقة والإتقان، والجمع والاستقصاء، لأن اللسان هو اللغة، والعربية في زمن ابن منظور لابسها الضعف وانصرف أهلها عنها إلى لغات أخرى، فرغب المؤلف في أن يضع سفراً جامعاً للسان العربي، فكان هذا المعجم الجامع، واكتسى العنوان بغلالة المضمون.

أما تاج العروس من جواهر القاموس، فهو أحد المعاجم التي عنيت بمعجم القاموس المحيط، فعملت على شرحه، لأنها وجدت القاموس شديد الإيجاز والاختصار يبدو صعباً ومعقداً في بنائه فيستدرك على الفيروزابادي ما فاته. لذا رأى أن يسميه تاج العروس من جواهر القاموس. فإذا وسم مادة القاموس بالجواهر فإنه يسم مادة كتابه بتاج العروس، والتاج منزلته الرأس، وهو معادل موضوعي للإبداع والرفعة. فجاء العنوان على نسق واحد مراعياً فيه السجع.

هكذا حرص أصحاب المعاجم اللغوية السابقة على كشف كنه العنوان، ليكون القارئ على وعي بما يقرأ، ولا بدّ أن المنافسة كانت دافعاً وراء هذا الكشف والاهتمام ببيان العلة التي دفعتهم إلى اختيار هذا العنوان دون سواه. مما يجعل العنوان لديهم إشارة مختزلة ذات بعد إشاري سيميائي.

ومما يلاحظ في هذا المضمار أنه تكرر في استخدامهم لفظة محيط أو المحيط، وعرفنا أن المحيط هو البحر الأعظم. ونعلم أن أغلب العرب عاش في الجزيرة العربية، في صحراء مترامية الأطراف حيث لا بحار ولا أنهار، فمن أين جاءت هذه اللفظة للعرب، وكيف تعرفوا إلى دلالتها؟ لا بدّ أن اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم الذين أسلموا أو دخلوا جزيرة العرب قد تعرفوا على بعض ألفاظهم ومصطلحاتهم. فكان البحر يمثّل السعة والتنوع، وأنه يزخر بالدرر والأعاجيب، لذا كانت رغبة المؤلفين في مصنفاتهم التماهي مع ما يوفره البحر من عمق ورحابة، فقرنوا بين البحر

وتواليفهم. إذ يذكر ابن منظور في لسان العرب " سمى البحر فجراً لسعته وانبساطه..." (ابن منظور: لسان العرب، 41/4). ومن هنا اطلقت هذه اللفظة على المصنفات من باب الفضل والتعدد لتدل على اتساعها في المادة اللغوية التي جمعتها.

ومما يلاحظ أيضاً أن هذه التسميات اقترنت بلفظة اللغة، نحو : البارع في اللغة، وتهذيب اللغة، والمحيط في اللغة – عن طريق الإضافة، والوصل بحرف الجر (في) وهما على معنى الظرفية، فتغدو اللغة الرسالة المطروحة في العنوان الذي هو سيميائية دالة على ما يحوي الكتاب من قضايا تعالج اللغة.

واختلفت الصيغ التي جاءت عليها العناوين ما بين المصدر في نحو العين وتهذيب... وقد عُللت التسمية بالمصدر بما ينطوي على أجواء نفسانية معينة، ويوحي بالمزج بين بين إيحاءات الأسماء مزجاً شديد الاقتران والاستدال من أن تقوية الكلام بالتأكيد المصدري، هو من علامات الحقيقة". (حسين خريوش: التسمية ماهيتها وفلسفتها وخصائصها الدلالية، ص52). واسم الفاعل في، نحو: البارع " وفي هذه الصيغ من الوعي لطائف من البلاغة، وهي أن أسماءهم إنما تجيء مجيء التمثيل، لقوى الفاعلية بالحركة الكلية، وهي قوّة تمثّل الشيء المحسوس في النفس، كما هو مجرد عنم الموادّ الخارجة" (حسين خريوش: ص33). واسم المفعول في المحكم.. واسم المكان في المحيط. فيغدوالمكان عنواناً لما يوحى من دلالة ذكرناها آنفاً.